



أقصصة هكينة من مولد سمث^(١)

الجندي الأجزم^(٢) للأستاذ دريني خشبة

يجهل نصف الناس كيف يعيش نصفهم الآخر ! !

تلك ملاحظة عامة شائعة ؛ بل ليس فيما يلاحظ الناس أكثر منها شيوعاً . . . وهي مع ذلك ملاحظة صادقة ؛ فهموم العظماء

(١) من أحسن الكتاب والشراء الانجليز ، وأنتهم وأغزهم فكرة وأعمهم فلسفة ، هو أوليفر جولد سمث ، وقد حال دون انتشار أدبه في اللغات الأخرى قوة أسلوبه ، وصعوبة ترجمته إلى لسان آخر . . . وقد حرصنا على أن تكون أقصوصه هذه صورة صادقة منه ، فلا يبهرن القارئ هذه المقدمة الطويلة التي قدم بها قصته ، فقدمته كقدمات شو ، أحسن من قصصه .

(٢) الأجزم : الذي بترت يده أو أصابعه

إلى جهة واحدة)

فهذه النظرية لم تكن أسمى حظاً من رفيقاتها السابقة ، بل هي لا تختلف عن نظرية مدرسة مونبيلييه من حيث توضيحها للحياة بالحياة نفسها

وفي ختام هذا البحث لا يمكننا إلا القول : الحياة هي قوة إلهية كامنة ينشأ الله تعالى في الموضع الذي خصصه لها وهي كل جسم صالح للحياة . وقد تبين لنا أن العقل البشري منذ القرون الأولى إلى العصر الحاضر لم يكتشف كنهها ، فهو إذن عاجز عن إدراك الحقيقة النهائية للحياة ، ولعل الله يكشف لبعض الأدمغة الواسعة عنها فيخلص طائفة كبيرة من عناء التفكير فيها ويردعهم عن الوقوع في الزلات الجسيمة وارتكاب الأخطاء العظيمة (انتهى بحت الحياة وبله بحت الروح)

محمد حسن البقاعي

دمشق ،

ما تلبث أن تقشو ونفشو ، وتذيع أباؤها حتى تصبح ملء الأسماع ، وملء الأفواه ، وحتى تصبح حبتها قبة ، وحصرتها عتبة ؛ وذلك بما يعطها به الرواة ، وما يصفون عليها من الزخرف الزائف ، والبهرج العقيم . . . وبيتعت هذا في نفوس المهمومين طائفاً من الزهو فيلتذون همومهم ، ما دامت تجعلهم أبطالاً في تقدير الأعرار

هذا ، وليس نغراً أن نحتمل الرزء في ثبات وفي جليل ليسا طبيعة فينا ، ولا أصلاً في جبلتنا ، بل هما صدق للخيل التي يثيرها فينا إعجاب الناس بنا ، واستعظامهم لنا أما العظيم حقاً ، فهو الذي ينزل بساحته الخطب فيصمد له ، ولا يحفل به ، في حين لا يخل فيواسيه ، ولا صديق فيشجمه . . . بل . . . ولا بارقة من أمل قنسى عنه . . . ذلك رجل يبني علينا احترامه ، ويجب أن نتخذة لنا قدوة ، مهما يكن . . . من السوقة هو . . . أو من عليية الناس

ياما أتمس حظ الفقير ! !

إن الرجل الغني إذا أصابته ضراء ، وقد لا تكون من الضراء في شيء ، تناقل الناس ضراءه ، فهولوا بها ، وأفاضوا فيها ، يبدتاً رزاً الفقير بأضعاف ذلك فلا يلتفت إليه أحد ، ولا يمتد به مخلوق . . . وإن مصيبة واحدة من مصائبه في سحابة يوم لترجع مصائب العصابة أولى الحول من السادة العظماء في حياتهم حيماً . . .

إن من أصغر جنودنا وبجارتنا العادين من إن ينزل به الخطب لا تتصور فدحه عقولنا ، فيصبر له في عظمة وتسليم وإيمان ، دون أن يشكو أو يتململ ، أو يتسخط على قضاء الله ، ودون أن يشهد الناس . . . هذا . . . وقد تكون أيامه كهن نوازل يأخذ بعضها برقاب بعض

لشد ما كنت أضيق ذرعاً بأوفيد وشيشرون ورايونين

حينما كنت أقرأهم فأراهم يشكون ويبرمون ويتسخطون ، ويتدبون حظههم العائر ، وطالمهم النحس . . . ولماذا؟؟ لأن أحدهم لم تسمعه المقادير بزيارة هذا المكان أو ذاك ، مما وقر في باله أنه كان جرياً لو قطف ثمار السعادة فيه .. وليس هذا المهم من المهموم إلا السعادة صرفة إذا قيس بما يجرحه البائسون من غصص الحياة كل يوم ...

لقد كان أولئك يحميون في بلهنية وسعة ، يحف بهم حشهم ، ويسجد تحت أقدامهم خدمهم ، لا يحملون همًا من هموم المادة ، ولا يبألون كلفة من كاف الحياة ... كل هذا بينما كان كثيرون من بني جلدتهم يجوبون الآفاق في ظمأ ومسغبة ، لا يكادون يجدون السكن الذي يدرأ عنهم عاديات الجو وتقلباته ...

كل هذه الخواطر دارت بحسدي حينما لقيت جنة ، ومنذ أيام خلت ، رفيقاً بئساً كنت أعرفه إذ أنا سبي ؛ يطوف في أزقة المدينة وهو يتكفف الناس ، وقد جعل يقرنل^(١) برجلين إحداهما من لحم وعظم ... والأخري من خشب ... ومن فوق كاهله سترة بخار بالية ، يتوكأ بها على عكازة نائية

وهالني أن أراه قد آل إلى هذا المآل ... فلقد كنت أعرفه أميناً دائماً شديد الذؤوب إذ كان يعمل في الريف ... فبعد أن دستت في يده ما هو حسبُه ، رغبت إليه في أن يقص علي قصة حياته ، وطرقت من أبناء مأساته ... وأرسل سديقي الجندي الأجنم ، وقد كان جندياً حقاً وإن بدا في ثياب بحار ، أظافره تميث في جلدة رأسه ، ثم انكأ على عكازته ، فعرفت أنه يجمع أشعثات الله كريات التي تتألف من أسرارها قصته ، والتي ساقها في حديث طويل طلى هكذا :

« لا أستطيع أيها السيد أن أدعي أن مصائبى قد فاقت مصائب سواي ، أو أنني لقيت من العنت ما لم يلق غيري ، إذ أنني ، فيما عدا هذه الساق البتورة ، وتلك الأصابع المجذومة ، وما اضطرت إليه من المسألة والتكفف ، لا أجد والحمد لله ما أشكى منه ! وإن هذا زميلي تَبَز الذي فقد ساقيه جميعاً ، وإحدى عينيه ، والذي أقمده كل ذلك عن السى وراء رزقه ... فأين أنا مما آل إليه ؟ شكراً لله !

ولقد وُلدت في شُبَشِير ، ومات أبي - وكان من

(١) فزل من باب فرح وضرب منى وتعمل للأعرج فقط

العالم - ولما أبلغ الخامسة بعد ، فأرسلت إلى ملجأ إحدى الكنائس ذوات الضياع ... ورفض القساوسة أن يقبوا علي لأنني لم أستطع أن أنتسب لديهم ، ولأنني لم أستطع أن أخبرهم أين وُلدت ؛ ومن لي بهذا وأبي - وقال الله ! - كان رجلاً آفاقياً ، لا ينتهي من تطواف إلا إلى تطواف ! وقذفوا بي من أجل هذا إلى ضيعة كنيسة أخرى ، فأرسلتني بدورها ، ولنفس الأسباب ، إلى ضيعة ثالثة ، فرابعة ، خامسة ، وهكذا دواليك ، - حتى حسبتني أقضى الحياة في هذا التشرذ الطويل دون أن أستقر ، لولا أن تغلبت مروءة الانسانية آخر الأمر ، فنجلت إحدى الكنائس أن تطردني من ضيعتها ، فبقيت نمت ، وألحقت بكتابها لأتلم الهجاء ، بيد أنني وا أسفاه لم أثبت به طويلاً ، إذ آانس في معلم المصنع الملحق بالكنيسة جماً يافماً وذراعاً مفتولة لا أيسر عليها من حمل المدق والمطرقة فاخترتني لماوتته في عمله ... وبقيت هناك خمس سنوات كانت أسعد فترة في حياتي لسهولة العمل ، وطلاوة الميش ، وإقبال الزمان ... ذلك أنني لم أكن أعمل كل يوم أكثر من عشر ساعات (١) ، ومع ذلك فقد كنت أعطي نصيباً وافراً من اللحم والشراب يتناسب مع مجهودي الضئيل ، ومع أنني كنت أشتهي لو قضيت حياتي كلها نمة فانهم كانوا يخبسونني داخل الكنيسة ، بحيث لم يسمحوا لي قط أن أعدو وصيد بابها ، خشية أن أفر إلى ملجأ آخر ... ولا أدري لماذا كانوا يظنون مثل هذا الظن ، والكنيسة كلها كانت رجلاً لي ، وحوشها^(٢) الكبير أمرح فيه حيث أشاء ...

« ثم نقلت بعد أن شبيت إلى مزرعة مجاورة لأعمل فيها من مطلع الفجر إلى غسق الليل ، ثم أعود إلى الكنيسة لأنام ، وكنت أحمدهم الله على أن يسر لي أمرطعامي وشرابي ، وعلى أن حجب إلي عملي الذي كنت أقبل عليه في رضى وقناعة ... ولما مات المعلم الذي لزمته طوال هذه المدة ، كان طبيعياً أن أهجر الضيعة لأشق طريقتي في الحياة بنفسى ، ولأكدح في سبيل رزقي فرحت أزرع الأرض ، وأنتقل من قرية إلى أخرى ، وأشبع إذا لقيت ما أعمله فأرجع عليه ، وأجوع إذا لم ألق عملاً حتى أوشك أن أقضى من الطوى^(٢)

(١) الحوش كلمة عراقية وهو شبه الخظيرة والصريون يتملونها بكثرة

(٢) الطوى بالفتح الجوع

إلى الوطن ... واشتاق النفس إلى أمجلا الأوطان التي أهواها من كل قلبي ، وأخلص لها الحب من أعماقي ، فليت أياماً أفكر في الأوبة وأعد لها عدتها ، وحرصت على الأقع فيها وقتت فيه من قبل من تهمة البطالة والتشرد ، فلم أذهب قط بعيداً عن حدود المدينة ، بل رحت أذرعها مشرقاً ومغرباً وانتظر يوم الرحيل ... واستمعت بأداء بعض الأعمال التافهة على التوق من عين الشرطة وكنت أشعر بسعادة عميقة أثناء هذه الفترة التي تسبق عودة النازح إلى أرض الوطن ... ولكن ... حدث ما لم يكن قط في حسابي ، فبينما كنت عائداً أدراسي من بعض عملي إلى منزلي ، إذا رجلا قويان يلصقاني لكماً كاد يحطم رأسي ، وإذا بي أهوى إلى الأرض في غير وعي ... حتى إذا أقفت إذاها يأمراني أن أمهض ثم إذاها ينطلقان بي إلى الحاكم الذي يطلب إلى ما يثبت شخصيتي ! حتى إذا عجزت هذه المرة كما عجزت في الأولى ، ترك لي أن أختار إحدى اثنتين لا نالتهما ، فإما أن أنطلق من فوري فأعمل بحاراً على ظهر مركب يوشك أن يبحر أو أن أنصوي إلى صفوف الجند فأحارب أعداء المملكة ... ولم يكن بد من أن أختار الجندي التي شعرت فيها بكرامتي خصوصاً بعد أن حاربت في وقتين كبيرتين هما معركة الخالدة ، ومعركة فونتنوي التي لن أنساها ما حيت ... ولم يمسنى ضر في أي منهما ، اللهم إلا جرح هنا ... في هذا المكان الرحب من صدرى ، استطاع طبيب فرقتنا الحاذق النطاسي أن يشفيه سريعاً « وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، ودخلنا في السلم كافة ، سُرح كثير من الجنود فكنت منهم ... ولم أستطع أن أضطلع بالأعمال الشاقة التي كنت أحتملها من قبل ، لأن جرحي كان ينشغل^(١) أحياناً فيؤلني ويقعدني عن أي عمل ... ثم انضممت إلى جيش شركة الهند الشرقية فحاربت الفرنسيين في ست معارك دامية ، أبلت فيهن جميعاً بلاء حسناً ، ولو كنت قد أسعدني الحظ ففقت بالكتابة والقراءة لارتقيت إلى مرتبة (أونباشي) ... وشاء الجد المأثر أن يلم بي مرض يقعدني عن الحياة العسكرية المقاحمة ، فهبج في قلبي حينه القديم ، وفي نفسي توقفاً إلى الوطن ؛ فانتوى الأوبة من جديد ، وإن في جيب لأربعين جنبها

« ثم حدث أن كنت ماراً ذات يوم في طريق وسط مزرعة لحاكم الاقليم فلححت أرنباً ربياً يرتع ويلعب ويقضم العشب ، فوسوس الشيطان في صدرى أن أحذفه بمصاي ... ففعلت ... وقصمت ظهره ، ثم هروك إليه فحملكه وأنا فرح بهذا الصيد ، وما كدت أمضى حتى لقيني الحاكم صاحب المزرعة نفسه وانطلق يسبني ويلعني ، ويرميني بكل موبقة ، ويشتمني فيقول ويقول ... ثم أمر بالقبض علي ، وإحضاري أمامه لأثبت شخصيتي وليرى إن كنت متشرداً أو جوارب آفاق ... وقد وقتت أقبل الأرض بين قدميه وأرضاه وأستمطفه ، ثم جعلت أسرد له ما أعرف من أرومتي ونشأني وآبائي ، حتى لم أبق شاردة ولا واردة إلا قصصتها . ولكنه وأسفاً تجهم وقال : إنني لم أستطع أن أثبت له شخصيتي . ثم حوكت بمد هذا - أعاذك الله - بهمتين عجيبتين ، أما إحداهما فخرق قوانين الدولة بما قصمت ظهر الأرنب ، وأما الأخرى ... فلأني فقير معدم ... لا أمانى ... ولا ورأى ! وأرسلوني إلى نيوجيت بلندن لأنني من أرض الوطن في زمرة المجرمين والتبطلين « وبالرغم مما يزعمه الناس عن الحياة في السجن ، فلقد وجدته لطيفاً ظريفاً كما وجدت أي مكان غيره في العالم .. وماذا غير أن يأكل الإنسان ويشرب ملء بطنه ، وينام ملء عينيه ، دون أن يعمل عملاً ما ... ! لعمري لقد كنت أوتر أن أبقى هناك إلى الأبد ، لو لم يأخذوني بعد خمسة أشهر إلى الميناء ، حيث سُحنت أنا ومثنان غيري من ذوى البطالة في فلك كبيرة ، ما لبثت أن همت بنا في موج كالجبال إلى مزارع المستعمرات وراء البحار وقد تركونا لكثرتنا الهائلة تنام في بحر ضيق بين القمرات^(١) ، فاختنق من اختنق ، وعاش من عاش ، وكانوا يقذفون بمن مات في اليم ليدفن في بطون السمك ، وآله لقد دفن فيها نصفنا أو يزيد ... أما من نجا ، فقد اعتل جسمه وخارت قواه ، وهزل هزالاً شديداً

« وبلغنا الشاطئ ، وبعونا كالرقيق للزارعين ، وظللت أفلح الأرض مع العبيد ، ولو قد تملت الهجاء لنجوت من حمارة الشمس الاستوائية ، ولقمت بعمل أسهل ... ولا أطيل عليك ، فلقد لبثت في عملي المتصل سبع سنين سُرحنا بعدها وهفا القلب

(١) نقل : الجرح من باب فرح فد

(١) القمرة حجرة في السفينة لم تهف عليها في المصادر العربية وللمهارومية

حمر أرمانة ... وكان ذلك في إبان الحرب الحاضرة ؛ وكم كنت أحلم أحلاماً للذيذة سعيدة إذ أنا على ظهر الفلك ، وأفكر في كيف أفق هذا القدر غير القليل من الذهب الوهاج ... وكانت الحكومة في حاجة ماسة إلى الرجال ، فلما أهابت بأبناء الوطن انضوت إلى الصفوف وأنا في عرض البحر ، فعملت بحاراً في إحدى وحدات الأسطول ، من غير أن تكون لي أية دراية بأعمال السفانة الحربية ولا غير الحربية ... وطالما أهمني الريان بأني أعرف من الأعمال البحرية ما أنا بخفيه ، إشاراً للعمل الحربي في البر ، فكان بضربتي ضرباً مبرحاً لم يكن يخفف من أوجاعه في نفسي إلا الأربعون جنبها التي ادخرتها واكتنرتها في جيبى ، والتي كترتها بما ضممت إليها مما كنت أقتصد بمد

وقد ضلت سفينتنا مرة ، فأسرتنا وحدة بحرية فرنسية ... وبهذا - وأسفاه - خسرت تقودى كلها ... ونزلنا إلى البر في ميناء برست ، ولم يحتمل رفاق الملاحون زهمة السجن وهواء الخناق ، فمات أكثرهم ... أما أنا فقد بقيت فيمن بقي ؛ ويبدو أن ما تمودته من الحياة في أشباه هذا السجن ، قد جعلني أحتلم ما لم يحتمل زملائي

وبينا كنت ناعماً على أرض السجن ، وأنا ملتف بغطائي الدافئ ، إذا بي أستيقظ على صوت الريان الذي جعل يلكرني لأصحو ... وقال لي في صوت خلفت ، وهو يحمل مصباحاً أخفت من ضوءه : « جاك ! جاك ! هل لك في أن تحطم رأس (الديدبان) لتلوذ بالفرار يا صاحبي ؟ » ولم يكن أحب إلي من أن أفعل . فوافقت على هذه المجازفة التي رغبت إليها كراهيتي للفرنسيين ، الذين أعدهم أمة من العبيد ... والذين لا يلبسون في أرجلهم إلا (القباقيب !)

ولم يكن منا سلاح ما ... بيد أننا كنا على ثقة دائماً من أن إنجليزياً واحداً يسمعه أن ينتصر على عشرة من الفرنسيين ... وهكذا انطلقنا إلى حيث انكش الحارسان في ركن بيئته من البرد ، فانقضضنا عليهما ، وانترعنا منهما سلاحيهما ، ثم حطمتنا رأسيهما ، ولذنا بالفرار إلى الشاطئ ... ولحق بنا تسعة ممن بقى من أسرانا ، فركبنا زورقاً كبيراً ، وأبحرنا من فورنا

« ولبتنا نصارع الموج ثلاثة أيام سويًا ، حتى أضر بنا

الجوع ، وأوشك أن يهلكنا الظلم ... ثم اقتربنا من مركب كبير غسبتنا أن يد العناية قد أرسلته إلينا لتفشلنا مما نحن فيه .. فإذا هو مركب من مراكب (قراصين) البحر استطاع رجاله أسرنا ... وكم كان فرحهم بنا عظيماً ، لأننا أيد عاملة تنفعهم فيما هم بسبيله من أعمال القراصنة .. وقد رضينا نحن بالعمل معهم ، إذ كان لا بد مما ليس منه بد .. ولم يكن حظنا بساماً هذه المرة ، فلقد شاء سوء الطالع أن نشتبك في قتال بيننا وبين ال (بومبادور) القوية التي يملك قراصينها أربعين مدفعاً صالحة كلها للعمل ، بينما لم تكن تملك أكثر من عشرين وثلاثة مدافع ... ومع ذلك فقد قاومتنا ما وسعنا أن نفعل ، بل بدا لنا أننا نرى النصر قاب قوسين أو أدنى ، في نفس اللحظة التي تمت هزيمتنا فيها ... وعلّة ذلك كثرة من قتل من رجالنا ، وقلة الأيدي التي لم يكن يسمها أن تعمل المدافع كلها لتحتوز النصر ...

« وهكذا شادت المقادير أن أكون مرة أخرى في قبضة الفرنسيين ... ولشد ما فرغنا أن يرسي بنا ثانية في برست ، إذن ما كان جزاؤنا إلا القتل هناك ... لكننا رسونا في ميناء أخرى ، فنجونا ... وقد نسيت أن أذكر لك أنني فقدت إحدى ساقتي ، وأربماً من أصابعي ، وأصبت بأربعة جروح كبيرة في هذا القتال الهائل ... أواه يا سيدي ! أواه لو أسعدني الحظ فكنت قد فقدت هذه الساق وتلك الأصابع فوق بارجة من بوارج الوطن ... ! ؟ إذن لكفلتني الحكومة ، وحبست على معاشاً كاملاً طوال الحياة ... ولكن ... ما حيلتي ؟ إن من الناس من يولد وفي فمه ملعقة من فضة ، وإن منهم من يولد وفي فمه مفرقة من خشب ... ! على أنه مهما يكن من أمرى ، فإني أحمد الله القدير الذي جاني عافية وصحة ، ووهبني النعيم والحرية ورزقني حبة بلادي ... بلادي ذات المجد ... إنجلترا ... إنجلترا الأم ... عاشت إنجلترا ! »

ثم مضى عني ، وغادرتني في حيرة من رضاه بما هو فيه ، وتسلميه الجليل لما صنع الله ! ! حقاً ... إن التمرس باليؤس يعلنا كيف نستبين به ، أضعاف ما تعلمنا ذلك الفلسفة ! !

درينى فوشيه